الدور الوظيفي للثقافة الشعبية الجزائرية واقــع و آفــاق

صالح جديد
معهد اللغة العربية و آدابها
المركز الجامعي- الطارف

الملخص:

تبحث هذه الدراسة الدور الوظيفي للثقافة الشعبية الجزائرية و كيفية النظر إلى الثقافة الشعبية عموما في عالم أضحت العولمة مشهده المألوف و المتكرر ، كما تسعى الدراسة إلى وضع الحلول الممكنة و الخطوات المنهجية و العملية للحفاظ على تراثنا الشعبي المهدد بالاندثار و الزوال ، أو التحريف ، و كذلك في تجاوز أحادية الرؤية و الثقافة .
و مهما تكن النتائج المتوصل إليها في هذه الدراسة فإنه يبقى القول: إن دراسة الثقافة الشعبية تحتاج إلى تكاتف الجهود، و إلى العمل ضمن فريق منسجم هدفه كيفية المحافظة على جهود أسلافنا و الاستفادة منها لصالح الإنسانية.

Resume:

Cette etude cherche le role fonctionnel de la culture populaire algerienne , et la maniere de voir a la culture populaire en general , dans un monde ou la mondialisation est devenue son spectacle habituel et repris .
Aussi lètude cherche à mettre quelques solution possible et les etapes methodologiques et pratiques à la sauvegarde de notre patrimoine populaire menacè par lànéantissement et la deviation , ainsi que de dépasser la vision et la culture neutre ,et quelques soit les conséquences abouties à cette etude , il reste de dire que létude de la culture populaire a besoin dune collaboration des efforts et de progrés, et le travail dans une equipe coherente , son but est la maniére de garder les progrés de nos ancetres et mattre au profit de l humanite .

توطئة:

يصعب على الكثير من الناس فهم جوهر الثقافة الشعبية ، و حملها محمل الجد في الحركة التنمويـــة والتوعوية للدولة والفرد ، ليس فقط كنمط و سلوك اجتماعي يهدف إلى الوحدة و التمسك بالأصول والجذور الضاربة في أعماق الحضارات الإنسانية ، و إنما كمادة حيوية تعمل على نشر الوعي الفكري ، والنضج العقلي ، و السلوك الجماعي ، وأمام هذا الموقف الصعب و الفهم السيئ تحاول هذه المقالـــة تسليط الضوء على عالم الثقافة الشعبية الجزائري ، باحثة الآفاق والواقع متخذة من العناصر التاليـــة _ ميدان بحث الإشكال و الحلول الممكنة، وقد استفدنا من الأعمـــال والمؤلفات المتخصصة _ و وضعنا العناصر التالية لمعالجة الموضوع:

01 _ الثقافة الشعبية أهميتها و نظرة المجتمع إليها

02 _ موقع الثقافة الشعبية من مؤسساتنا التعليمية و الإعلامية

03 _ أشكال تعبيرية في طريق الاندثار

04 _ الدخيل و الأصيل من ثقافتنا الشعبية

05 _ الثقافة الشعبية في مواجهة العولمة و المسخ الثقافي

06 _ الرؤية المستقبلية و الحلول المقترحة .

أولا: الثقـــافة الشعبيـــة أهميتـــها و نظـــرة المجتمـــع إليـــها:

إنه ليس من نافلة القول إذا قلنا: إن الثقافة الشعبية بمختلف أشكالها و ألوانها تؤثر تأثيرا كبيرا و واضحا في الحياة الاجتماعية من سلوك ، و اعتقاد، و في كل أشكال التعبير المتنوعة كاللباس التقليدي ، و المأكـــل والمشرب ، و كذلك الآداب و الفنون، إنها باختصار تصبغ كل طابع بالصبغة الشعبية المنحوتة من الذاكرة الجماعية الممتدة من أول مجتمع بشري بدائي إلى هذه المجتمعات المعقدة الحديثة ؛ لأن الثقافة الشعبية تنبع من الوعي ، و من اللاشعور الجمعي ،والذي كان نشاطه كبيرا للغاية ومنه تصدر الأفعـــال والتعبـــيرات الواعية التي لا يمكن

تراث مغزاها إلا إذا بحثنا عن جذورها النفسية مثل طقوس السحر و الزواج والعمل الجماعي و غيرها ، و لهذه الأهمية تعود الأمم إلى تراثها الشعبي تستمد منه قوتها وتميزها ، و أصالتـــها ، وإبداعها ، وفي هذا المقام يقول الدكتور حصة زيد الرفاعـــي :

(ويتفاعل المأثور الشعبي كذلك مع فنون الأدب الحديثة كالشعر و الرواية و غير ذلك من أنماط الإبداع الأدبي المعاصر و يشكل دورا فاعلا في صياغة تلك الفنون واتجاه العديد من الفنانين نحو استلهام المأثـــور الشعبي من حكايات ، و أساطير ، وأغاني و عادات و تقاليد و مظاهر الحياة الشعبية المختلفة ، ويستوحي عدد من مؤلفي الفنون التعبيرية من رقصات ، ومسرحيات و فنون موسيقية العديد من إبداعاتهم الفنية من المصادر الشعبية سواء في الأفكار أو أساليب العرض والأداء، و يجد الفنانون التشكيليون في منابع التراث منهلا ثريا للكثير من أعمالهم الإبداعية في الرسم و النحت ،و غير ذلك من الفنون الجميلة مما يضفي على تلك الأعمال طابعا بيئيا و أصالة قومية تكسبها شهرة محلية و عالمية)1 ، ولكن السؤال الذي يطرح في كل مناسبة و بإلحاح شديد هو : كيف تؤدي الثقافة الشعبية دورها الفعلي داخل المجتمع؟.إن الإجابة عن مثل هذا السؤال نجدها عند الدكتور عبد الحميد يونايو عندما قال : (و تكمن وظيفتها الاجتماعيـــة في تنظيم أعضاء الجماعة فيما بينهم ، و في علاقتهم بالنظام و بالمؤسسات القائمة ، و تعمـــل على حفـــظ التوازن النفسي للأفراد وتحديد هويتهم و إعطاء معنى لوجودهم و تسويغ مواقعهم، و تحاول الإجابة عما يطرحونه من أسئلة في مواجهة الكون ، كما توحي لهم بالسلوك المفضل)2 .

إن تحديد المفاهيم و ضبط الإشكال بدقة يسهل علينا فهم الثقافة الشعبية كعنصر توحيد بين ما يظهر للغير صعب التحقق ، و إذا أدركنا هذا جيدا فإننا نكون قد حققنا خطوة هامة في إطار البناء الحضاري للمجتمع انطلاقا من مقوماته و اعتمادا على خصوصياته الثقافية المحلية و القومية ، و إذا كانت هـــذه المحاولة تحرك

بعض الكوامن الثقافية ، فالهدف منها هو ضبط وجهتنا الثقافية و عناصر وحدتنا و هويتنا في الألفية القادمة.

وتتمثل الأهمية الأولى في كون الثقافة الشعبية بوابة الإنسان إلى معرفة أسرار مجتمعه أو غيره ، كاشفة له المغزى من وراء كل عمل نابع من الوعي أو اللاشعور الجمعي (و إذا كانت هناك مظاهر لهذا اللاشعور الجمعي مثل الأحلام ذات الطابع غير الفردي التي يمكن أن يراها الإنسان في كل زمان ، و مكان ، إن نشاط اللاشعور الجمعي كبير للغاية و عنه تصدر الأفعال و التعبيرات الواعية التي لا يمكن إدراك مغزاها إلا إذا بحثنا عن جذورها النفسية ، فالطقوس ، و السحر ، وميلاد الطفل البطل ، و كثير من خيـالات الحكايات الخرافية ، كل هذا لا يحتاج إلى شرح فلكلوري فحسب ، و إنما يحتاج إلى الكشـف عـن جذورها التي نبع منها)3. و من هنا بالضبط تبدأ أهمية الثقافة الشعبية ، إذ بها ندرك قيمة العمل و أهدافه و بفضلها نمضي إلى الجانب الآخر من مرآة حاضرنا الذي هو نتيجة لتفاعل عشرات الأجيال بل الآلاف مع بيئتها الطبيعية و الاجتماعية، فاللباس التقليدي داخل ربوع الجزائر يتنوع بتنوع المناطق ، و بالتـالي الثقافات ، فنجد اللباس القبائلي المميز بالشكل و اللون فهو نسيج لوحده، و كذلك اللباس التارقي ، فإذا الأول قد تأثر من ناحية اللون بالطبيعة ، و بخاصة في فصل الربيع فكان اللون الأصفر و الأبيض و الأحمر ، فإن الثاني تأثر بالطبيعة الصحراوية فجمع ما بين الزرقة و البياض و السواد ، و في كل هذا عمق الانتماء الأفريقي ، و ما هذه الألبسة إلا سلاحا يقهر به المواطن الطبيعة ، و يكشف لنا مدى تطويعه لها و سيطرته عليها ، و هذه ثاني أهمية _ تمييز و تفريق المظاهر الاجتماعية و الشعبية بين أبناء القطر الواحد _ و أمـا الثالثة فهي المحافظة على خصوصيات كل تجمع بشري ، فاللهجات ، و أنماط التعبير في حالات الفـرح ، أوالحزن ، أو الأعمال الجماعية التطوعية تثبت الخصوصيات و علامات التميز فمثلا الأعـراس التي تبدأ فرجتها بألعاب الفروسية وطلقات

البارود ، و حركات راقصة مميزة تدل جميعها على أن ذلك المجتمع متمسك بقيم الفروسية النبيلة الموروثة من عالم السيرة الشعبية ، كما توحي بتعلق المجتمع بعالم الفرس والسلاح ، و هما بمثابة الشرف الذي لا يباع ، ولا يشترى ،و رجل الريف لا يبيع سلاحه و فرسه ، و لو بملء الأرض ذهبا ، و من يفعل ذلك عد من معرة القوم وسقط من أعينهم ، و ليس إعلان التمسك بالأدوات من باب الربح المادي فقط و إنما للبعدين الديني والاجتماعي اللذان تشكلا عليهما الوجدان والشعور الجمعي ، فنجدهم يعللون ذلك بقول للرسول صلى الله عليه وسلم : (الخيل معقود في نواصيها الخير)4 ، و قوله:(و جعل رزقي تحت ظل رمحي)5، فهما : الخيل والسلاح بالنسبة للمجتمع الريفي يمثلان العرض و المال أما الرابعة فهي: أن العادات و التقاليد الشعبية هي الحبل السري الذي منه تقتات المجتمعات وترتبط بأصولها ، و انتمائها الحضاري ، و التاريخي ؛ فنحن في المجتمع الجزائري نجد أن كل طائفة تتمسك بعاداتها حتى لا تذوب في طوائف أخرى و تضمحل بعد ذلك و تتلاشى ؛ فالشاوي ، و القبائلي ، و التارقي ، و العربي والميزابي ... كل منهم يتمسك بثقافته المحلية ، ولا ينفي الآخر ، لانصهارها جميعا في بوتقة المجتمع الجزائري الذي تشكل على مر الأزمنة من البعد الأمزيغي ، و العربي الإسلامي ، و الأفريقي ، و هذا ما نشاهده واضحا في الاحتفالات الرسمية و المواسم الدينية ، و الطقوس الاحتفائية الممزوجة بعناصر الهوية السابقة صانعة لنا مجتمعا واحدا فريدا من نوعه متميزا عن غيره يندرج جميعهم تحت باب الثقافة الوطنية .

و يمكننا أن نخلص بعد كل هذا إلى أن:

* الثقافة الشعبية تنبع من الأزمنة السحيقة و تنبثق من القوى الخلاقة للشعوب التي أنتجتها .

* تتيح الثقافة الشعبية للإنسان المعاصر فرصة الغوص في الأصول الأولى للأنشطة الثقافية والفكرية التي عرفتها البشرية على مر العصور.

* تحديد الهوية و الانتماء ، و التعريف بالمجتمع ثقافيا ، و تمييزه من غيره لا يتم إلا بالمرور عبر الثقافة الشعبية ، والتي هي بحق صمام أمانه .

و هكذا تتبين لنا الأهمية القصوى للثقافة الشعبية و التي أضحت قبلة للأبحاث و الدراسات الأكاديمية العلمية المتخصصة ولا نقول جديدا إذا قلنا : إن الولايات المتحدة الأمريكية قد خصصت في العقدين الأخيرين من هذا القرن حوالي خمس و عشرين (25) جامعة للأبحاث ، و الدراسات ، و التخصصات المتنوعة في الثقافة الشعبية ، فهل فكرنا مليا في ثقافتنا الشعبية كبذرة معطاءة لنمو و بقاء هويتنا، و وحدتنا ، والمحافظة على امتدادنا التاريخي و الحضاري ؟.

و إذا عدنا إلى مسألة نظرة المجتمع للثقافة الشعبية فإننا نجدها تختلف اختلاف الفئة، و زاوية الرؤيـــة ، وطبيعة ونوعية الثقافة ، و سلم ترتيب الأولويات ، و على العموم فإن نظرة الإقصاء هي السائـــدة ، والبقية يعتبرونها ضربا من ضروب الفانتازية ، و اللهو أو التسلية ، و هذا في أحسن الأحوال ، و مرد هذه النظرة يعود إلى عدة عوامل نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر :

1- الجهل التام بالثقافة الشعبية من ناحية المدلول و الوظيفة .

2- الانبهار الكلي بمستجدات الحياة العلمية .

3- قلة الندوات العلمية المتخصصة و الأبحاث و الملتقيات التي تعرف و تبين و تقرب الثقافة الشعبية من المواطن .

4- حصر الثقافة الشعبية في عينات محددة كاللباس التقليدي، و الفنون الغنائية، و المصنوعات اليدوية.

5- النظرة العدائية ، أو العدوانية لبعض أشكال التعبير الشعبي مثل الرقص و الأساطير ... ، وهذا إما لأسباب دينية ، أو صيحات علمية محضة ، و مثل هذا الموقف يشوه حقيقة التراث الإنساني ، و يجعله قائما على الانتقائية.

إننا لا نستطيع أن نغير نظرة المجتمع إلى الثقافة الشعبية ما لم نتجرد من العوامل الذاتية ،و ما لم تتـــحرك الجهات الوصية والمسؤولة و على رأسها الجامعة ، ثم

الوزارة ، و المديريات الثقافية و الجمعيات ، و الهواة كما أعتبر التحول في الفهم لن يكون ما لم تكن الثقافة الشعبية في متناول الجميع ، و حسسناهم بأنهم هم صانعوها ، و أنها تمثل قطعة منهم ، وهذا يتطلب منا رسم خطة ثقافية وطنية شاملة تبدأ بتصحيح المفاهيم و تنتهي بالتمثيل والتمثل.

إن المجتمعات المتقدمة انطلقت أولا من ثقافتها فهما و تصحيحا ، و هنا نتذكر أبحاث جاكوب و فلهلم غريم ، فرويد ، و يونغ ، و ليفي ستراوس ، و فلاديمير بروب ....الخ حول الأساطير و الحكايات الشعبية ، و إذا ما نجحنا في تحقيق هذا فإننا نكون قد فهمنا المقولة القائلة: إن التراث هو صلة الوصل بين الماضي و الحاضر . و لا غرابة من العداء للثقافة الشعبية حاليا إذا عرفنا أنه عداء عريق، فالقدماء من الأدباء و المؤرخين لم يمنحوا التراث العناية اللازمة ولو عدنا إلى المصادر المتخصصة نجدها تذكر الأعلام التالية:

- ابن محمد الحجازي الأندلسي صاحب كتاب المسهب في غرائب المغرب .
- ابن دباغ المالقي صاحب كتاب ملح الزجالين .
- عاصم الغرناطي صاحب كتاب حدائق الأزاهير من الأمثال العامية .

إذا كان هذا حال الأوائل فإننا لا نعجب من تقصير المعاصرين ، إن الواقع اليوم يلح أكثر على ضرورة جمع التراث وفق أحدث المناهج و أسلمها مؤكدين على أهميته و خطورته إما بالسلب أو الإيجاب ، فقد يجمع و يوحد الشعب كما حدث أثناء الثورة التحريرية عندنا ،و قد يفرق عندما يستغل لأغراض دنيئة وهذا ما تم على يد الاستعمار الفرنسي عندما رفع شعار _ فرق تسد _ فظهرت النعرات العرقية وللأسف مازالت بعض ثمارها إلى اليوم ، و هو ما يؤكد أهمية الثقافة الشعبية (إن الحديث عن الأدب الشعبي حاجة ملحة فرضتها إشكالية البحث في القيم الثقافية و الفكرية الأصيلة للشخصية الوطنية ، فالأدب الشعبي يعد أحد أهم الركائز الثقافية الوطنية ، والبحث في مجاله يعد بحثا أصيلا مرتبطا بالكيان الثقافي لأية أمة من الأمم البشرية ، إن هذه الحاجة بدون شك يمليها الواجب

و مسؤولية إثبات الـــذات ، وتحديد هويتها ، و تدعيم بقاءها ، و استمرارية صمودها في خضـــم هذا التهافت الفكـــري السياســـي الثقـــافي ، والأيديولوجي)،6 من هذا النص تتضح لنا الأهمية القصـــوى لثقافتنا الشعبية ولتراثنا الثقـــافي ككل، كما يمكن أن نضيف من الأدوار (تسجيـــل الأحداث التاريخية ، و تصوير الواقـــع المـــزري ، وكشف سلبياته ، و عيوبه و التحريض على المقاومة و الصمود ، و تأكيد القيم الوطنية)7 ، و لا يمكن لأمة أن تتخلى عن ثقافتها مهما كانت الأسباب أو الظروف ذلك أن مجرد التخلي عنها و لو آنيا يفتح أبواب التبعية و الضعف و فقدان الهوية و الذات ؛ لأن الصراع اليوم صراع بقاء هوية و حضـــارة ، لا صراع قوة و مادة فقط .

ثانيا : موقـــع الثقـــافـــة الشعبيـــة في المؤسســـة التـــعليميـــة و الإعـــلاميـــة:

إذا اتفقنا على ضرورة الاهتمام بالثقافة الشعبية بيننا كأفراد ، فإن الواجب الوطني يدفعنا إلى بحث موقـــع الثقافة في المؤسسة التربوية و الإعلامية ، وهنا نسجل التخلي شبه الكلي عن الاهتمام بالثقافة الشعبية جمعا و تدوينا ودراسة ، فالمؤسسة التربوية تفتقر برامجها التعليمية من معالم الثقافة الشعبية فلا القصـــة ، و لا الحكاية ، و الأمثال موجودة كمادة تثقيفية ، ولا كمادة للمطالعة ، و لا كسلوك اجتماعي يغـــرس في الطفل بذور الأمل ، و القيم الإنسانية النبيلة ، و لا تقدم كعامل توحيد ، أو علامة التنوع الثقافي ، ومن هنا نلتمس من مسؤولينا ضرورة العناية بالثقافة الشعبية و إعطائها مكانة تليق بها فالطفل الذي يشب على حب الوطن أو العمل ، أو التحيز للخير حتما يشب عليه ، و لقد تفطن أديب الاتحاد السوفيـــاتي سابقا ماكسيم غوركي إلى قيمة الأدب الشعبي فكتب للأطفال قصصا استوحاها من الفولكلور الروســـي ،

ومثله كان لافونتين ، وغيرهما كثير ، والمتصفح اليوم لكتاب القراءة وفي كل المستويات لا يجد إلا القليل من الحكايات الشعبية ، أما قطاع الإعلام المرئي ، والمسموع ، و المقروء ، فلا نكاد نعثر فيه على مكان للثقافة الشعبية ، و إذا

وجدناها فهي إما جهدا خاصا و فرديا ، و إما في حجم وزمن ومكان تقزمها ولا تظهرها على وجهها الحقيقي ، و بمقارنة بسيطة و سريعة بين ما كان يقدم في الإعلام في السبعينيـــات والثمانينيات نجد البون شاسعا و الفرق واضحا ، واليوم ماذا نجد في التلفاز حصة وحيدة تقدم في أوقات متأخرة من الليل ، ألا وهي : بيت الحكمة ، و في القناة الأولى للإذاعة حصة لأستاذ الأدب الشعبي عبـــد الحميد بورايو ، و في إذاعة عنابة حصة لأستاذ الأدب الشعبي أيضا محمد عيلان ، أما الجرائد فعلى كثرتها و تنوعها إلا أننا لم نجد الصفحة الخاصة بالثقافة الشعبية ، و إنما نعثـــر أحيانا على بعض الدراســـات ،

أو المقالات المهتمة بالثقافة الشعبية ، وسجلنا منذ أشهر تقريبا محاولة شجاعة للأستاذ عبـــد الحميـــد بورايو تمثلت في نشر حكايات شعبية جزائرية شائعة بين العامة والخاصة ، و من المؤلفات المتخصصة في الثقافة الشعبية الجزائرية نذكر هذه القائمة كما أوردها الباحث محمد سعيدي: (و تواصلت جهود بعض المثقفين باحثين في أشكال التعبير الشعبي من حكايات ، أشعار ألغاز .... و ذلك وفق رؤى و مناهـــج مختلفة و متعددة من تاريخ ، علم نفس ، علم الاجتماع ، نقد أدبي سيميائيات ، لسانيات ، أنثروبولوجيا اثنولوجيا الخ ...نذكر أعمال :

1 - الأستاذ عبد المالك مرتاض :

الألغاز الشعبية الجزائرية ، دراسة في ألغاز الغرب الجزائري 1982

الأمثال الشعبية الجزائرية ، دراسة في الأمثال الزراعية و الاقتصادية بالغرب الجزائري 1982

عناصر التراث الشعبي في اللاز ، دراسة المعتقدات و الأمثال الشعبية ، الجزائر.

2 - رزولين ليلى قريش :

القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي 1980

3 - عبد الحميد بورايو :

القصص الشعبي في منطقة بسكرة 1985

4 – العربي دحو :
الشعر الشعبي و دوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس 1989

5 _ التلي بن الشيخ :
دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830_1945)8 .

فهذه القائمة لا تعبر عن ثراء ثقافتنا الشعبية المنشورة باللغة العربية و أقل منها وجدناها منشورة باللغة الفرنسية _ وأغلبها رسائل جامعية أعدت لنيل شهادات أكاديمية _ كالماجستير و الدكتوراه _ مثل : (مواقف و ممارسات بمواجهة الموت في المنطقة الجبلية الكبرى ، إعداد ماري فيرول سويب ، باريس 1980)9 ، و رسالة الباحثة (هادية مشيري سعدي الأناشيد التقليدية للنساء في المنطقة الجبلية الكبرى ، دراسة عرقية – موسيقية ، باريس 1979)10 .

و ما يلاحظ على هذه الأعمال أنها بحثت جانبا مهما من ثقافتنا الوطنية ألا وهي الثقافة الأمازيغية ، وللأسف لم تترجم إلى اللغة الوطنية لتعم الفائدة ، أو لتكون دافعا قويا للعديد من الباحثين .

إننا عندما نذكر هذه الصورة السوداء نعلن من خلالها الخطر الذي يتهدد وحدتنا ، و ثقافتنا ، و هويتنا ، وإن التراث لا يقوم به واحد ، و لا جماعة محدودة العدد و العدة ، وإنما هو قضية الأمة أولا ، والمؤسسات المختلفة ثانيا ، و نقول للذين يقدمون التراث الشعبي كحلقة من حلق الفولكلور ، أو ممارسة استعراضية تزين الاحتفالات ثم تندثر و تنطفئ كالشمعة بجانب المصباح الكهربائي، أنتم واهمون ، أنتم الخطر الحقيقي على التراث ، و أن فهمكم هذا فيه من الخطأ ما جعل الأمور تختلط عليكم اختلاط المفاهيم و الميادين ، اسمعوا إن شئتم إلى قول الدكتور محمد الجوهري : (لعل من أيسر الأمور على الباحث أن يدعي انتماء الأدب الشعبي إلى التراث الشعبي ليس كميدان عادي ، إنما كواحد من أبرز موضوعاته و أكثرها عراقة ، و وجه اليسر في أن علم لكلور كان في مرحلة من مراحل تطوره يقوم أصلا وأخيرا على دراسة الأدب

الشعبي ؛ فالأدب الشعبي موضوع تقليدي بارز من موضوعات التراث الشعبي ، لسنا في حاجة إلى أن نسوق أدلـــة على ذلك ، و مهما اختلف الباحثـــون على حدود علـــم الفولكلور فهم لا يختلفون لحظة عن أن ميدان الأدب الشعبي يقع في مكان القلب من هذا العلم)11 .

إن ما تستطيع المؤسسات التعليمية و الإعلامية أن تقدمه للثقافة الشعبية عظيم وكبير ، وما يحققونه في مدة قصيرة و في زمن أسرع ، قد يحققه العمل الفردي في زمن أطول ، و قد لا يتحقق أبدا ، فدور وسائـــل الإعلام مهم في مثل هذا الوقت أين تكتلت الدول و راحت كل واحدة تجتهد في تقديم تراثها في الدعاية السياسية ، و الإشهارية والتجارية ، ولكننا في الإعلام الجزائري نلاحظ غيابا شبه كلي للمادة التراثية في الدعاية الإعلامية ، بل إنها غابت حتى من العملة الوطنية التي كانت تزخر بها في سنوات ماضية كرمـــوز الثورات الشعبية ، و الثورة التحريرية، والثورة الزراعية ، وذكرى الاستقلال الوطني ...الخ .

إن مثل هذه الحالة التي لا تسر الباحثين أو المهتمين بتراثنا مهما تنوع و اختلف عبر عنها الباحث محمـــد سعيدي مجملا الأسباب و موضحا الحقائق بقوله :

(إن النظام الثقافي السياسي السائد فبالقدر الذي اهتم بالأدب الأول _ المدرسي _ بالبحث و التدوين ، و التدريس ، و الطبع و النشر ، و إقامة المهرجانات ، و الملتقيات من أجل تأصيله و تثبيته وتدعيمه ، بالقدر الذي احتقر الأدب الثاني _ الشعبي _ و منـــع الحديث عنه أو حوله ، و بالتالي لقد تعامل معه تعاملا مزيفا ، ضيق الرؤية و محدود الآفاق ، و لم ير فيه إلا إبداعا من الدرجة الثانية خال من أية قيمة جمالية فنية ، و عديم الوظيفة الفكرية و الثقافية)12 ، و لعل توجها ثقافيا يحمل طابع الوطنية يعيد النظر في السياسة الثقافيـــة المنتهجة ، ويعمـــل على إحياء تراثنـــا وتقديمه للأجيال في صوره الحقيقية و لن نجد في الوقت الراهن أجدى وسيلة من وسائل الإعـــلام المتنوعة لتأثيرها المباشر و السريع كما سلف القول ، وهذا ما يؤكده الباحث ميـــل : (فالناس صاروا يستقـــون أغلب مفاهيمهم

و خبراتهم من البرامج التي تبثها وسائل الإعلام)13 ، فالمسؤولية عظيمة ، و الدور مهم و خطير ، ولكنه ليس مستحيلا و بخاصة إذا علمنا ثراء و غناء تراثنا الوطني بالشخصيات و الرموز التي تجمعنا وتوحدنا .

ثالثا : أشكال تعبيرية شعبية في طريق الاندثار :

الحركية المتسارعة في عالم الاكتشافات العلمية و التكنولوجية جعلت المهتمين بالثقافة الشعبية يعلنون بدايات زوال العديد من الأشكال التعبيرية الشعبية التي كانت السبيل الوحيد للمواطن للتعبير عن أفكاره ، و أحاسيسه ، و حياته اليومية ، فهل ستصمد الآن أمام زحف الإنترنت ، و موجة العولمة العاتية التي لا تعترف بالحدود ، و لا بالخصوصيات الفردية أوالجماعية ؟.

قبل الإجابة عن السؤال دعونا نرجع قليلا إلى حياة آبائنا ، حيث النسيج الاجتماعي قويا والفضل في هذا يعود إلى الحكاية الشعبية و ما تفعله من ربط الصلات بين الأفراد ؛ فالجد أو الأب وهو يحكي تلتف حوله العائلة مشكلة حلقة قوية أساسها الاحترام المتبادل و الحياء ، فلا أحد يتكلم أو يخرج إلا بإذن منه ، كما تخلق الجلسات العائلية أواصر الوحدة و الشعور بالانتماء الدموي و العرقي ، والسيرة الشعبية توسع هذا الشعور ليشمل المواطنين ، حيث البطل ينتقل من بلد إلى بلد فترتبط الأوطان ، و يتوحد المصير ، وتتفق الجهود على نصرة الحق و محاربة الباطل ، وأكبر عمل تقدمه السيرة الشعبية هو الشعور بالوحدة القومية ، و إحياء أمجاد الأباء ، و استلهام تجاربهم في الحياة والصراع ، و أخذ العبرة منها.

أما اليوم فإن الأمور تبدلت فأين الحكايات الشعبية داخل الأسرة ألم يزلها التلفاز ! ألم تقتلها الحياة الفردية المعاصرة وانشغلات اليوم ! ومسرح الظل هذا الفن العريق أين هو اليوم ؟! ، وأين صندوق العجائب ؟! ، هذا غيض من فيض ، لقد كانت هذه الفنون تعمل على توحيد المجتمع و تثقيفه و ربطه بتاريخه العريق ،إن الفنون الشعبية القولية ، أو المادية هي خير سفير للمجتمع و خير معبر عنه ؛ لخلوها من

مساحيق التزيـــين وأقنعة التزييف ، إنها تقدم المجتمع على حقيقته ، ولو عددنا نتائج هذا التحول الرهيب بإيجابياته و سلبياته لو وجدنا أبرزها تتمثل في :

1- تمزق الأواصر الاجتماعية و طغيان النزعة الفردية و الروح المادية على المجتمع.

2- الانقطاع شبه الكلي بين جيل السلف و جيل الخلف ، و تحميل كل طرف الطرف الآخر مسؤولية الضعف والتأخر.

3- التمسخ الثقافي و اهتزاز الشعور بالوحدة و الانتماء للوطن و لثقافته الأصيلة و هويته الضاربة في أعماق التاريخ الحضاري.

4- تنامي روح البحث و الاهتمام بالثقافة الشعبية داخل المؤسسات الجامعية.

5- تغير بعض النظرات العدائية والمجحفة في حق الثقافة الشعب.

و مثل هذه المخاطر ليست وليدة اليوم بل قد ساهم فيها الاستعمار الفرنسي بقوة ، فكما هو موثق تاريخيا أن الحكومة الفرنسية أصدرت أمرا (بمنع فن الأراجوز سنة 1843م)14 ، كما أن الحـــرب و ما نتج عنها ساهم في اندثار الكثير من الأشكال التعبيرية ، و قلـــة الأعمال الميدانية إما بسبب الظـــروف الأمنيـــة ، أو الاقتصادية ، أو لقلة التشجيع من قبل الهيئات المسؤولة والمجتمع ، حيث يعتقد البعض منهم إن لم أقـــل جلهم بعدم جدوى مثل هذه البحوث ، و قد يصل الأمر ببعضهم درجة التندر و السخرية ، و الأمر بهذه الصورة في غاية الخطورة ، فلو بحثنا الآن على صور الحضور للألبسة ذات البعـــد التراثي فإنها قليلة ، و لا يعرفها إلا أصحابها أو الباحثين في هذا المجال ، وذلك مثل الألبسة الحاملة لشخصيات ، و رموز وطنيـــة كقماش (شوارب بومدين ، وهو قماش ملصق و مذهب ، وقماش شاذلي الذي هو جرســـي أو منديل محاك من خيوط فضية مطبوع عليه وردة نافرة ، أو جوامع بن غانة القماش الذي يمثل زهورا صاعـــدة تذكر ربما بالمآذن) 15 ، أو الألبسة التي جسدت حضور أحداث وطنية مثل قماش (حزن الوطن) 16 ، الذي أرخ به لسنوات 1958 / 1960 ، أو قماش

(شمس الحرية يمجد الاستقلال يمثل زهورا كبيرة بشكل شمس)17 ، فهذه الأقمشة اختفت من السوق و من الاستعمال ، وحتى المتاحف الوطنية لم تحتفظ بها ، وبغيابها نكون قد فقدنا حلقات كبيرة من تاريخنا الوطني ، و من عبقرية شعبنا على التعبير بكل الأشكال التي يراها تحقق الهدف المنشود سواء كان سياسيا أو اقتصاديا أو تواصليا .

و هذا الغياب له مبرراته و أسبابه (إن العامل الأول لهذا الزوال هو بلا شك الحرب التى حدت من كل مظهر ثقافي ، أما العامل الثاني مرتبط على الأرجح بالتمدين و التصنيع اللذين قادا إلى تغييرات في طريقة الحياة التقليدية)18 ، و نضيف إلى هذه الأسباب العامل السياسي ، الذي ربط الثقافة و العلم ككل بتوجهاته ، وكما هو معلوم أن الثقافة الشعبية تجنح دوما إلى الحرية و عدم التقيد حتى من العوامل الدينية فما بالنا إذا كانت سياسية ، فبالمقارنة بين تطور التراث الشعبي في القديم ، و في عصرنا نجد أن القدامى أبدعوا بعيدا عن السلطة الرسمية مهما كان نوعها ، و أنه بمجرد الالتحاق بها ، أو سيطرتها عليه دب فيه الضعف ، ذلك أن القدامى أبدعوا لتخليد ذاتهم الحضارية ، و للتأقلم مع بيئتهم و عصرهم ، بالإضافة إلى البعد التجاري و المنفعي أما الآن فالوضع مختلف تماما حيث لا يهمنا إلا الربح المادي ، و لا نلتفت إلى توريث إبداعاتنا إلى من يأتي من بعدنا.

و الحقيقة غير هذا ذلك أننا ملزمون جميعا ببناء الثقافة الوطنية كل حسب تخصصه و قدراته المادية والفكرية والمعرفية لقناعتنا أن (الثقافة الوطنية هي مجمل المجهود الذي يبذله شعب ما على الصعيد الفكري لوصف و تبرير وإنشاد العمل الذي من خلاله تكون الشعب و حافظ على نفسه)19 .

رابعا : الثقافة الشعبية بين الأصيل و الدخيل :

إن معالجة مثل هذا الموضوع يحتاج إلى بحث مطول ،و لكننا في هذا المقام نحاول الإشارة إلى بعض النقاط التي نراها تفتح سبل البحث لمن يريد الاستزادة،

كما أن الصعـــوبة تكمن في طبيعة المجتمع الجزائـــري الضارب بأعماقه في جذور التاريخ السحيق ، و هذا العمل _ البحث عن الأصيل و الدخيل_ لا يحققه إلا البحث الأكاديمي ؛ لأن الساحة الوطنية تجتذبها نظرتان: الأولى لا ترى في ثقافتنا الحالية أصيلا أو دخيلا ، ولو وجد الدخيل فهو نتاج الاحتكاك الحضاري بين الأمم ، أما الثانية فإنها تحاول جاهدة الكشـــف عن الدخيل و تمييزه من الأصيل ، و هنا نجد رأيين واحد يرجع الأصيل إلى الهوية الأمازيغية ، و الآخر يرجـــع الدخيل إلى كل الأحداث التاريخية التي مرت بها الجزائر ، من الفينيقيين ، و الوندال ، و الرومان ، و الفتح الإسلامي و الاحتلال الفرنسي و الغزو الثقافي الحديث والمعاصر (و نعتقد أن المجتمعات البشريـــة كانت ولا تزال عرضة للتأثير و التأثر بعضها ببعض بفعل التداخل الثقافي ، و هذا التداخل لم يعد يحـــدث فقط نتيجة التعايش المباشر بين عدد من الثقافات ، و إنما صار يتم من خلال ما تعرضه وسائل الإعلام الحديثة و تطلع عليه الشعوب المختلفة بالبث المباشر ، فوسائل الاتصال الجماهيري كما سبق القول قد قربت بين الثقافات الإنسانية من خلال نقل أنماط من تلك الثقافات)20 ، و إذا أردنا الحقيقة فإن ثقافتنـــا الشعبيـــة تشكلت من كل هذه التجارب السابقة و لكن أصالـــة الشعب تبقى حاضرة في النماذج الثقـــافية الـــتي تحضر بقوة في الاحتفالات المختلفة ، حيث الأزياء الشعبية في اللباس ، و الممارســـة الاعتقاديـــة و الفنون القولية ، وكل هذا يؤكد أن الثقافة الشعبية تظل ساكنة كامنة في نفوس الشعب ولا تظهر إلا إذا حفزها و نشطها كما أن الأصيل منها نجده بقوة في الأرياف و القرى التي لم تتأثر بالمدنية ، و لكن هذا الأمر لن يبق على حاله إن لم نتداركه بمايلي:

1- جمع و تدوين ثقافات المجتمع الأمازيغي التي ظهرت قبل أي وافد عليه.

2- جمع الثقافات التي هي ليست من أصول أمازيغية.

3- ضبط الأنماط الثقافية التي تتماشى مع انتمائنا الحضاري و العمل على نشرها.

4- تحديد علامات و مظاهر التأثير و التأثر ، و الإشارة إليها بكل دقة و وضوح لنعرف الدخيل من الأصيل.

5- الاعتماد على المؤلفات التراثية و النقوش و المنجزات الموسيقية ،و كل التعابير الشعبية المادية والمعنوية لمعرفة طابعها و مطبوعها .

6- حماية المجتمعات التقليدية من كل محاولات التغيير أو المسخ الثقافي، و ذلك بمنع حركة الهجرة الداخلية ، أو الخارجية مع توفير كل ضروريات الحياة ؛ لأن هذه المجتمعات هي العينة الأقرب لمعرفة المشارب الصافية للثقافة الشعبية.

7- تتبع المعيار التاريخي كما وضحه علماء الفلكلور، ومنهم: برنهايم فيدر، و فانسينا.

8- التعاون الثقافي مع الدول التي تقاسمنا الماضي ، و إجراء المقارنات ، و هذا البند أوصت به خطة اليونسكو المدرجة تحت رقم : 84 |1989 م ، إذ يقول :(لا يمكن تصور الذاتية الثقافية بمعزل عن الانفتاح على الثقافات الأخرى ، فلو توجد إلا في علاقتها بالمجموعة البشرية التي تحملها وعن طريق هذه العلاقات فقط لكانت نظاما منغلقا يؤدي إلى الاكتفاء الذاتي و الانحطاط و الانهيار ، و إن التقاء الثقافات هو الذي يخلق و يغذي دون انقطاع الشخصيات الثقافية في كل مجتمع و التي هي عبارة عن توليفات فريدة و متجددة دوما من المبادلات المتواصلة مع الخارج)21 ، و هو ما قال به علماء الاجتماع الثقافي : (إن إسهام الانتشار الثقافي في إغناء محتوى الثقافات الفردية ذو أهمية بالغة جدا)22 .

وإن الأمر بفضل هذه الإجراءات تتضح لنا بعض معالمه ؛ و هي هنا ليست دعوة للجمود أو التعصب ، وإقامة الحدود و الانكفاء على الذات ، و إنما لتجلية ميزات و خصوصيات المجتمع عن غيره ؛ لأننا نؤمن أن جميع الثقافات متباينة ومتمايزة من الداخل و شديدة التفرد ، و في الوقت ذاته تعتمد على عدد من المبادئ و نظم القرابة و شبكات التضامن و القيم الجمالية و الأخلاقية ، و أما الجمود ، أو الرفض ، أو الذوبان الكلي ؛ فإنه يدفع إلى النكسة الثقافية ، والتي

مرجعها إلى عدم التأقلم مع الثقافة الوافدة ، أو التطورات الحاصلة داخل المجتمع ؛ أي عندما لا يكون الانسجام بين الأصيل و الدخيل ، و المحلي و الوافد (... و ذلك عندما لا تتم عملية التوافق على أسس سليمة ، و حينئذ يعود الإنسان الثقافة التقليدية)23 .

إن مسالة تحديد الدخيل و الأصيل من الأمور الصعبة حيث تحتاج إلى مزيد من الاهتمام بالثقافة الشعبية الجزائرية ، وإذا ما حققنا بعض الجهد فإننا نقوي حلقات الوحدة الوطنية ،و نضعف من ممارسات التفريق و التمزيق ،و لو تأملنا قول أستاذ الأدب الشعبي التلي بن الشيخ وهو يتحدث عن الدور العظيم الذي أداه الشعر الشعبي الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي لأسكت كل ناكر لوظيفة التوحيد التي أدتها و تؤديها الثقافة الشعبية : (يتميز الشعر الشعبي الجزائري بالروح الوطنية ، و الدفاع عن الحرية و الكرامة ، فقد تابع الثورات المتعاقبة ، و سجل انتصاراتها في حماس كبير ، كما سجل هزائمها في حسرة ، و حزن ، وحارب الظلم والطغيان في كل أشكاله و صوره ، و كان مدفوعا في هذا الحماس الفياض بروح دينية إسلامية ، فرأى في الغزو الاستعماري غزوا للإسلام لا يختلف في أهدافه عن الحروب الصليبية التي تعرض لها الإسلام في المشرق والمغرب ، بحيث يمكن القول بأن منطلقات الشعر الشعبي الجزائري منطلقات واقعية نابعة من آلام و جراح الشعب الجزائري ، ليس فيها من الخيال و التصور إلا ما يدعم الواقع الاجتماعي ، و يعطي الصورة الشعرية بعدها و وقعها في نفس القارئ)24 .

و إذا عرفنا الأصيل من ثقافتنا الشعبية استطعنا أن نقف في وجه كل هجمة ضدنا، و استطعنا أيضا أن نسهم في بناء الحضارة الإنسانية العالمية ، و كلنا ثقة و دونما شعور بالدونية ، كما أن استفادتنا من الدخيل تمكننا من تدارك نقاط الضعف و السلبيات ، و الاستفادة من الإيجابيات ، و بهذا يمكن القول:

إن تحديد الدخيل و الأصيل ليس بهدف تأخير هذا و تقديم ذاك أو العكس ، و إنما من أجل تفعيل التراث وذلك بتحريره مـــن ظاهـــرة التملك المطلق ، أو التقييد المجحف ، أو الإطلاق التام ، و كذلك لمعرفة ما لنا و ما هو لغيرنا ، و كيف استفاد منه آباؤنا لنواصل من حيث توقفوا .

خامسا : الثقافة الشعبية في مواجهة العولمة و المسخ الثقافي :

لابد أن نقول أولا بأن العولمة ليست شبحا يتهدد الأمم و ثقافتها ،كما أنها ليست يدا ممدودة لتنتشل كل غريق ؛ و إنما هي ظاهرة أو لنقل تقنية تكنولوجية متى استطاع المجتمع التحكم فيها و السيطرة عليها حقق أهدافه و طموحاته ، و إذا أردنا كمجتمع أصيل المحافظة على هويتنا و ذاتنا دون أن ننعزل أو نتقوقـــع ، و إذا ما أردنا بث ثقافتنا و التعريف بها وبعاداتنا و تقاليدنا ما علينا إلا دخول العولمة كشركاء كامـلـــي الحقوق والواجبات ، و متحصنين بتراثنا و هويتنا وحضارتنا .

إذا كانت العولمة قد جعلت العالم متشابها و كأنه توأم ،فهذا لا يعني الذوبان و الاستسلام لعادات الغـــير وتقاليده ، وإنما ضرورة العودة للثقافة المحلية وهي الوحيدة القادرة على مواجهة العولمة ؛ فبفضلها يتحصن المرء و يأخذ جرعات المواجهة النافعة التي لا تعزله و لا تذيبه، و الثقافة الشعبية هي حجرة عثرة في وجه دعاة العولمة ؛ لأنها تعطي لكل مجتمع عناصر التميز و الاستقلالية من ناحية، و من ناحية أخرى تقـــوي دعائم الوحدة الوطنية ، و ذلك لتنوعها ، فلو زالت واحدة بقيت الأخرى تواجه و تتصدى .

إننا حتى نأخذ مكانا فوق الأرض و تحت الشمس علينا أن نبعث ثقافتنـــا الشعبيـــة المحلية وأن نفعلـــها مستفيدين من كل ما تقدمه لنا العولمة باختلاف مجالاتها ، و هذا بدوره يحمينا من المسخ الثقـــافي الـــذي يتربص بنا الدوائر ، وإذا كانت الجزائر تعاني من الفاصل الثقافي أو(البيثقافي)25 على حد تعبير الأستـــاذ نور الدين طوالبي ، و الذي أرجعه للنتائج الاجتماعية ، والثقافية أثناء الاستعمار؛ أي مرحلـــة الاغتراب و التغريب ، و كذلك نتيجة المحصلات الكلية جراء التغير

الاجتماعي بعد الاستقلال ، و اتباع سياسة التصنيع فظهرت أزمة ثقافية حادة بين الثقافة التقليدية و الثقافة العصرية نتيجة التطور الصناعي و الانفتاح الاقتصادي و الثقافي ، فمثلا مظاهر التعبير داخل مجتمعنا في شكل طقوس دينية ، أوالتكافل الاجتماعي (الزردة ، الولائم التويزة) أفل نجمها في السنوات الأخيرة مقارنة مع فترات ما بعد الاستقلال.

إن مثل هذه المظاهر تعبر داخل المجتمع عن مفاهيم اجتماعية و ثقافية ، فالزردة و إن أعابها الناس من الجانب الديني لما قد يكتنفها من مظاهر الشرك في الاعتقاد ، أو الوثنية في التصور و الممارسة ، فإنها مع ذلك تدل على الترابط الاجتماعي بين أفراد المجتمع حاملة معها عناصر الثقة ، و التآزر ، و ضرورة احترام الفرد الصالح من أبناء المجتمع ، و كذلك التويزة تدل على التكافل الاجتماعي و الإيمان بأن الجماعة رحمة و الفرقة عذاب ، و أن ما تنجزه الجماعة في لحظات قد لا ينجزه الفرد إلا بشق الأنفس ، و على أمد طويل ، و بغياب التويزة بفعل سيطرة النزعة المادية النفعية و الفردية تحللت أواصر الوحدة الاجتماعية ، و لن تعود إلا بعودة تلك المظاهر الموحدة للمجتمع و المقربة بين أفراده.

إن العولمة الثقافية تسعى لإيجاد ثقافة عالمية موحدة تلغي كل الثقافات المحلية و كذلك خصوصيات المجتمع ولكن هذا الأمر لا يتحقق إذا بقيت الدول تدافع عن حقها في تملك ثقافة خاصة تصب في الثقافة الوطنية المشكلة من الثقافة المحلية الشعبية ، فالعولمة لا تكتسح إلا المجتمعات التي فقدت خصوصياتها الثقافية ، وتخلت عنها ، أما الرافضة فإنها مطالبة بتقوية ثقافتها و العمل على المحافظة عليها من الزوال و التحريف و التزييف ، وذلك بإدراجها في الحياة اليومية كالإشهار الوطني مثلا ، الذي وجب تغذيته برموز ثقافتنا ليكون خير معبر وخير سفير لنا ، و غيرها من المجالات التي نرى من الضروري تدعيمها و تقويتها بالثقافة الشعبية ، و بهذا نقلل من صدمة العولمة ، لننطلق في

المراحل القادمة إلى طور عولمة ثقافتنا الشعبية من خلال بثها عالميا وفق برنامج وطني مدروس بإحكام من قبل أهـل الاختصاص ؛ لأنه لا يمكـن أن نتصور الذاتية الثقافية بمعزل عن الانفتاح على الثقافـات الأخرى ، فلو توجد إلا في علاقاتها بالمجموعـة البشرية التي تحملها ، و عن طريق هذه العلاقة فقط لكانت نظاما منغلقـا يؤدي إلى الاكتفـاء الـذاتي والانحطاط و الانهيار ، و إن التقـاء الثقافات هو الذي يخلق و يغذي دون انقطاع الشخصيات الثقافية في كل مجتمع ، و التي هي عبارة عن توليفات فريدة ، و متجددة دوما من المبادلات المتواصلة مع الخـارج ، و لكن في غير ضعف و لا هوان أو إحساس بالنقص ، أو قابلية للاستعمار على حد تعبير مالك بن نبي .

سادسا : الرؤية المستقبلية و الحلول المقترحة :

إننا بعد هذا الطرح المتواضع و الموجز لقضية نراها غاية في الأهمية نستطيع وضع هذه الرؤية المستقبليـة للثقافة الشعبية في الجزائر من حيث الوظيفة و الفاعلية داخل المجتمع ، و هذه الرؤية ترتكز على البعـد الوطني و العلمي للثقافة الشعبية ، وذلك عندما تتحول إلى قضيـة وطنية ذات حضـور دائم داخـل مؤسسات الدولة ، و بعدها العلمي يتحقق بالبحث العلمـي الأكاديمي سواء أقام به أهل الاختصـاص أو الهواة ، و محاولة الاستفادة من النتائج المتوصل إليها و تطبيقـها على المجتمـع ، كما ترتكز الرؤيـة المستقبلية على ضرورة تصحيح المفاهيم الغامضة أو الخاطئة التي تدور حول الثقافـة الشعبية ، و إعطائها القيمة الحقيقية داخل المجتمع و الأفـراد والمؤسسات الثقافية و العلمية و الاقتصادية و السياسيـة ... كما يجب العمل على النهوض بهذا النمط الثقافي وتطويره بإدخاله العولمة من أبوابها الواسعة و أهمها السياحـة الوطنية كما أنه من الواجبات الملقاة على عاتقنا إعادة الكشف عن مصادر الثقافة و تنقيتها من الشوائب الدخيلة المضرة بها ، هذه أهم النقاط الرئيسة التي تقوم عليها رؤيتنا المستقبلية للثقافة الشعبية ، ولو تتحقق فإن الوحدة الوطنية لن تكون في خطر ، كما

أننا نحقق هدف المحافظة على ثقافتنا الأصيلة و الأصليـــة ، وهذا العمل الطموح يجعلنا نساهم و لو بالقليل في وضع بعض الحلول للإشكاليات التي تعترض هذه المهمة النبيلة _ ترقية الثقافة الشعبية ، و تدعيم الوحدة الوطنية _ :

1 _ الاهتمام بالثقافة الشعبية جمعا وبحثا و تدوينا.

2 _ عقد الملتقيات و الندوات العلمية التي تجمع أهل الاختصاص من أجل الخروج بنتائج دقيقة تعـــالج غياب الثقافة الشعبية في تأطير المجتمع.

3_ إصدار المجلات و الدوريات المختصة في الثقافة الشعبية ، و ربط الجامعات و المخابر و الجمعيـــات ببعضها البعض.

4 _ رصد الجهود السابقة في ميدان الثقافة الشعبية و إعادة تصنيفها وتبويبها و ترتيبها ، ثم العمل على إنشاء بنك وطني للثقافة الشعبية مرتبطا بمركز وطني للدراسات و الأبحاث الشعبية.

5 _ إنشاء موقع إنترنت خاص بالثقافة الشعبية الجزائرية.

6 _ إعادة بعث و بحث تراثنا الثقافي الشعبي من العهود الأمزيغية إلى وقتنا هذا.

7 _ تمثل التراث تمثلا تاما ، و أن نعيشه فعليا في حياتنا اليومية و ألا نكتفي بمسألة الحفظ و التدوين.

8 _ ترجمة الأعمال و البحوث من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية لتعم الفائدة .

نقول هذا الكلام ؛ لأن : (التراث الشعـــبي لأمة من الأمم تراث مشترك بين جميع أبنائهـــا و مناطقها ، لأنه يعبر عن ضميرها الجمعي ، و يرسخ قيما نبيلة مشتركة، و يتوخى أهدافا حضارية واحدة لجميـــع متمثليه في الأمة ، أما تنوعه فهو دليل من دلائل عبقريتها ، و في الوقت نفسه فهو إثراء و إغناء لتراثهـــا المشترك المرتبط بالبيئـــات ومتطلباتها وتوافق المواطنين مع مناخها و تضاريسها و منتوجاتها)26 .

إننا في ختام هذا الموضع الشائك و المتشعب يبقى لنا هذا السؤال : ما يمكن أن تقدمه الثقافـــة الشعبيـــة و الفنون القولية لإنسان الإنترنت و التكنولوجيا الرقمية ؟.

إننا لو ربطنا السؤال بمسألة الهوية ، فإننا نقول : إن الهوية تظهر بدقة و وضوح على صفحات الفنون القولية والمادية ، و كلها ارتبطت بالمعتقدات الدينية ، و الشعائر ، و الطقوس أو بالعادات ، و الأعراف الاجتماعية ، والوظائف العلاجية سواء المادية أو المعنوية.

إن للثقافة الشعبية المتنوعة الدور الفعال في ربط الجانب الثقافي بالجانب الاجتماعي ، بل و في تنميته لتقوية عناصر توحيد المجتمع شكلا و مضمونا ، و هذا ما أكده المهتمون بهذا المجال من أمثال : قاسم عبده وطلال حرب ، و سيد ياسين ، فاروق خورشيد ، و نبيلة إبراهيم و غيرهم ، مؤكدين على ضرورة هذه الصلة و أهميتها لأن المأثور الشعبي في أشكاله و أنماطه و قوالبه المختلفة ملازم لوجود الجماعة ذاتها ، من ناحية أنه تعبير حي و ضروري عن توجهات الجماعة و رأيها و رؤيتها و رؤاها ، كما أنه التفسير الشعبي للأحداث و هو بالضرورة أهم و أكثر قيمة من التفسير الرسمي ، كما أنها تخفف من صدمة التكنولوجيا ، و تعيدها إلى البعد القيمي الذي يضبطها .

هكذا نرى أننا حركنا بعض المسائل الكامنة فينا ، و هكذا نرى أننا قد نقف أمام شر لابد منه على حد قول أسلافنا ، ألا وهي العولمة ، و أن الصراع في مجال العولمة الثقافية تحدد نتائجه الثقافة المحلية ممثلة في الثقافة الشعبية ، في أن نكون أو لا نكون .

إنه قد تتعدد الأسئلة و الإجابات ، و قد تصل إلى درجة التباين ، و لكن يبقى جوهر القضية في أن الثقافة الشعبية واقع والوحدة الوطنية مصير، و العولمة ظاهرة ، و إن لم نع هذا الوضع جيدا فإننا نبقى مجرد مكررين تكرار الحافظ دون معرفة أو دراية ، و هذا الوضع بينه الدكتور محمد عيلان بقوله : (إن الإنتاج التكنولوجي إذا لم يحمل روح الأمة ويراعي احتياجاتها النفسية و ظروفها الاجتماعية و متطلبات البيئة التي تتواجد فيها فإنه يظل إنتاجا استهلاكيا كغيره من إنتاج بيئات أخرى)27. فالمطلوب منا و من غيرنا أن نتمثل تراثنا تمثلا واعيا

من خلاله نضيف و نجدد ، و ندفع به إلى الأمام كما فعل أسلافنـــا من قبـــل لنضمن الاستمرارية و البقاء .

قائمـــة المـــراجـــع و الهـــوامـــش :

1_ مجلة عالم الفكر ، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة و الآداب ، دولة الكويت ، المجلد الرابـــع والعشرون ، العددان الأول و الثاني _ يوليو ، سبتمبر ، أكتوبر ، ديسمبر _ 1995 ، حصة زيد الرفاعي : الفولكلور و الفنون المعاصرة، ص: 167

2 _ عبد الحميد بورايو : البطل الملحمي و البطلة الضحية في الأدب الشفوي الجزائري _ دراسة حول خطاب المرويات الشفوية ، الأداء ، الشكل ، الدلالة _ ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1998، ص : 18

3 _ نبيلة إبراهيم : أشكال التعبير في الأدب الشعبي ،دار نهضة مصر للطبع و النشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية 1974 ،ص : 03

4_ مكتبة الحديث الشريف ، قرص مضغوط ، إنتاج شركة العريس للكمبيوتر و أنظمة الحواسيب ، د ت

5 _ المرجع نفسه

6 _ محمد سعيدي : الأدب الشعبي بين النظرية و التطبيق ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1998 ، ص : 02

7 _ عبد الحميد بورايو : البطل الملحمي و البطلة الضحية ، ص ص : 22،21

8 _ محمد سعيدي : الأدب الشعبي بين النظرية و التطبيق ، ص ص : 04،03

9 _ دليلة مرسلي و آخرون : دراسات لسانية حول التراث و الفولكلور الشعبي في الوطن العربي ، ترجمة سليم قسطون دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ،1988 ، ص : 45

10 _ المرجع نفسه ، ص : 52

11 _ محمد الجوهري : علم الفولكلور ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى، 1975 ، ص : 114

12 _ محمد سعيدي : الأدب الشعبي بين النظرية و التطبيق ، ص : 03

13 _ مجلة عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، دولة الكويت ، المجلد الرابع و العشرون العددان الأول والثاني ، يوليو ، سبتمبر ، أكتوبر ، ديسمبر 1995 ، حصة زيد الرفاعي : الفولكلور في الوسائط الجماهيرية ، مظاهر التأثير والتأثر بين فن الإعلام و الثقافة الشعبية ، ، ص : 174

14 _ عبد الحميد بورايو : البطل الملحمي و البطلة الضحية ، ص : 21

15 _ دليلة مرسلي و آخرون : دراسات لسانية حول التراث و الفولكلور الشعبي في الوطن العربي ، ص : 36

16 _ المرجع نفسه ، ص ، ن

17 _ المرجع نفسه ، ص ، ن

18 _ المرجع نفسه ، ص : 43

19 _ المرجع نفسه ، ص ، ص : 21 , 22

20 _ مجلة عالم الفكر ، المجلد الرابع و العشرون ، حصة زيد الرفاعي : الفولكلور في الوسائط الجماهيرية ، ص : 177

21 _ نبيل جورج سلامة : التراث الشفوي في الشرق الأدنى ومنهجية حمايته، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ، الطبعة الأولى 1986، ص : 84

22 _ محمد السويدي : مفاهيم علم الاجتماع الثقافي و مصطلحاته ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، و الدار التونسية للنشر ، تونس ، الطبعة الأولى 1991 ، ص : 154

23 _ المرجع نفسه ، ص : 161

24 _ التلي بن الشيخ : منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1990 ، ص : 01

25 _ نور الدين طالبي : الدين و الطقوس و التغيرات ، منشورات عويدات ، بيروت لبنان ، 1988 ، ص: 280

26 _ مجلة التواصل ، مجلة العلوم الاجتماعية و الإنسانية ، تصدرها جامعة باجي مختار ، عنابة ، الجزائر ، عدد 04 جوان 1999 محمد عيلان : التراث الشعبي الجزائري ، مفاهيم و ممارسات ، ص :167

27 _ المرجع نفسه ، ص : 184